

الوحدة لم تكن رحلة نيلية ذات صيف

الكاتب



عبدالله السناوي

عبدالله السناوي

لم تكن الوحدة المصرية السورية، التي أعلنت في (22) فبراير (1958)، انخراطاً في أوهام ومغامرات بقدر ما كانت تعبيراً عن صراع محتدم على المنطقة ومستقبلها

بحكم موقعها الجغرافي لم يكن ممكناً لسوريا أن تنغلق على نفسها تحت أي ادعاء، أو أن يكون لها مستقبل خارج عالمها العربي بأية ذريعة

ولا كان بوسع مصر، التي باتت قوة إقليمية عظمى بأثر النتائج السياسية لحرب السويس (1956)، ألا يمتد بصرها لما يحيق بالوطن السوري من مخاطر تتهددها بالانقلابات العسكرية الممولة، أو بالاحتراقات الأهلية المائلة، أو بالغزو من «الخارج بقيادة رئيس الوزراء العراقي «نوري السعيد»، الوجه الأبرز لـ«حلف بغداد

السياق التاريخي ضروري لفهم ما جرى من تدافع للحوادث وصلت ذروتها بإعلان الوحدة المصرية السورية

كان «جمال عبدالناصر» يخوض حرباً مفتوحة ضد سياسات ملء الفراغ والأحلاف العسكرية، التي تبنتها الولايات المتحدة القوة الدولية العظمى الصاعدة بعد تقويض مكانة الإمبراطوريتين السابقتين البريطانية والفرنسية

عندما تشاهد على شرائط مسجلة مئات آلاف البشر تتدافع إليه عندما زار دمشق لأول مرة، فلا بد أن تنصت لصوت التاريخ، وتدرك بالعمق أنها كانت تهتف للمعنى قبل الشخص، وأن هذه لم تكن «انفعالات عواطف» بل حقائق تاريخ يجسدها رجال

في (٢٨) سبتمبر (١٩٦١) جرى فصم الوحدة المصرية - السورية بانقلاب عسكري رعته الاستخبارات الأمريكية ومولته دول إقليمية عديدة.

كان ذلك إنذاراً مبكراً بما سوف يحدث تالياً من حروب على العروبة نفسها، أحلامها وتطلعاتها ونزوعها لاستقلال القرار الوطني والتنمية المستقلة.

باليقين فإن «عبدالناصر» يتحمل جانباً من المسؤولية. لم يكن «عبدالحكيم عامر» مؤهلاً لإدارة دولة الوحدة من دمشق والانقلاب حدث من داخل مكتبه. كما أن عدم تغييره بعد الانفصال كان خطأ جسيماً أفضى - ضمن أسباب أخرى- إلى الهزيمة العسكرية في يونيو (حزيران) بالحجم الذي حدثت به

رغم ذلك تتبدى الوحدة في الذاكرة العامة كحلم يستعصي على محاولات الإجهاز عليه. أجهزوا على تجربة «عبدالناصر» واصطادوها من ثغراتها، لكن للأحلام مناعة أكبر وعمراً أطول

قالوا إن الوحدة «وهم ناصري»، وإن مصر فرعونية، أو شرق أوسطية، أو أي شيء آخر غير أن تكون عربية، لكن الحقائق تغلب باستمرار

ف«مصر» - بالثقافة والهوية والجغرافيا والتاريخ - مشدودة إلى محيطها العربي، المصائر مشتركة، والقضايا واحدة، وعندما تنكرت مصر لأدوارها جرى ما جرى لها من تهमيش وتراجع في المكانة منذ سبعينات القرن الماضي وما بعدها

يستلقت الانتباه في أداء «عبدالناصر» لحظة الانفصال مدى إدراكه للحقائق في سوريا وخشيته على مستقبلها. بعد الانفصال بأسبوع قال في خطاب بثته الإذاعة المصرية، كأنه يقرأ طالع أيام لم تأت بعد: «إن الوحدة الوطنية في الوطن السوري تحتل المكانة الأولى.. إن قوة سوريا قوة للأمة العربية وعزة سوريا عزة للمستقبل العربي والوحدة الوطنية في «سوريا دعامة للوحدة العربية وأسبابها الحقيقية

لست أريد أن أقيم حصاراً سياسياً أو دبلوماسياً من حول سوريا، فإن الشعب السوري في النهاية سوف يكون هو» الذي يعاني هذا الحصار القاسي». وكان مما قال في ظروف الانفصال: «ليس مهماً أن تبقى الوحدة، المهم أن تبقى سوريا».

في لحظة الانكسار تبدت سلامة الرؤية. أوقف التدخل العسكري المصري بعد أن أرسلت قوات إلى اللاذقية خشية إراقة الدماء. وكان ذلك إجراءً سليماً، رغم صعوبته، فلا وحدة تتأسس على إراقة دماء

كان للانفصال عواقب استراتيجية أوصلتنا إلى الكوابيس المقيمة. تراجع زخم حركة التحرر الوطني في العالم العربي وقوة حضور المشروع القومي

كان من بين ثغرات تجربة الوحدة، التي أفضت إلى إجهاضها، الاعتماد على رجال الأمن أكثر من رجال السياسة وضعف الاتحاد القومي، الذي أنشئ عام (١٩٥٧) على أنقاض «هيئة التحرير».. كان تنظيمياً وحدوياً بلا وحدويين . بالمعنى الفكري

أحد المآسي الكبرى، التي نالت من مشروع الوحدة، الصراعات التي جرت بين الناصريين والبعثيين حيث أنهكت

جسد دولة الوحدة الوليدة وفتحت المجال واسعاً للانقلاب العسكري عليها

لم تكن تجربة الوحدة رحلة نيلية ذات صيف، بقدر ما كانت مواجهات مفتوحة امتدت بعمق الخريطة العربية، وقد ارتبطت بالتححرر من الاستعمار والتبعية واستقلال القرار الوطني، دارت معارك مع سياسة الأحلاف

لم تختزع ثورة «يوليو» المشروع العربي، لكنها جسده أماً حياً على الأرض بسياسات تبنتها ومعارك خاضتها

قيمة «عبدالناصر» في التاريخ ليست أنه حكم مصر، أكبر دولة عربية، ولا أنه أنجز بقدر ما يستطيع، أصاب وأخطأ، وهذا كله يستحق مراجعته بالوثائق الثابتة لا الأهواء المتغيرة

قيمه أنه عبّر عن فكرة أن مصر تستطيع أن تكون قوية وتجعل العالم العربي قوياً معها فتتضاعف قوتها، وهذه الفكرة «لا تبيء تاريخياً لمصر إلا ربع ساعة كل مائة سنة بتعبير الكاتب الصحفي «محمود عوض

التعبير مجازي لكنه يعبر، بصورة أو أخرى، عن حقيقة لا يمكن تجاهلها أن قوة مصر في عالمها العربي والخروج منه يفضي إلى عزلتها وتقويض ثقتها في نفسها، كما يفضي إلى إضعاف العالم العربي واستباحته

كان ذلك هو المقصود تماماً من تصويب السهام، كل السهام، حقبة بعد أخرى على تجربة الوحدة المصرية السورية